من وحي انجلترا[1]

نهر الجمال

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

في مقاطعة ديفونشير الجميلة بانجلترا مقاتن من الجمال الطبيعي ؛ وأحد هذه المقاتن نهر « الأكس » الذي ينبع من مرتفعات ديفون مارا بمدينة إكستر . وهنا يناجيه الشاعر بهذه الأبيات : —

ألفيتُ في واديك أُنسا ... وصفاء عيش ليس يُنسى
أمسٌ طوته يدُ الغيـ ... ـوب فمن يردُّ إليَّ أمسا ؟
أودعتُ تلك الذكريا ... تِ لديك بالكتمان رمسا
فاحفظْ وديعتَك التي ... خُلِسَت من الأيام خلسا..

خلتُ الحياةَ على ضفا ... فك لا تزولُ ولا تضيعُ
فإذا الحياةُ قصيرةٌ ... وإذا البطيءُ بها سريعُ ..
وإذا الليالي الذاهبا ... تُ لديك ليس لها رجوعُ
لا دامَ يا نهرُ الشتا ... ءُ بها . ولا بقيَ الربيعُ

سيَّانِ منبعكَ الموشَّى ... بالبدائع أو مصبُّك
أين الذي روَّيتَه ... ماءُ الحياةِ ولا يحبُّك ؟
وعلى ضفاف النيل ظَمْـ ... ـآن مُناهُ لو يعبُّك !
القلبُ بَاحَ بسرِّه ... أفهل يبوحُ اليومَ قلبُك ؟

تلك الهضابُ الحانيا ... تُ على ضفافك لا تزال ؟
وعلى صحيفتك المُضيـ ... ـئة لم تزل تلك الظلالُ ؟
وهل الليالي المُقمِرا ... تُ هناك يُحييها الوصال ؟
حيث القلوبُ تشبُّ جذْ ... وتها ويَستعرُ الخيال ؟

أين الطيورُ الرائحا ... تُ على مياهك والغوادي ؟
تلهو الصغارُ بها وتُط ... عمها الوليدةُ بعضَ زادِ
هي آمناتُ السرب تمْ ... رَح تحت أكناف العباد
هل فرَّقتها اليومَ غا ... رات الوحوش على البلاد ؟!

(١) من ديوان الشاعر تحت الطبع بهذا العنوان .

يا شعر !

للمرحوم أبي القاسم الشابي

يا شعر ! أنت فم الشعور ، وصرخة الروح الكئيب
يا شعر ! أنت صدى نحيب القلب ، والصب الغريب
يا شعر ! أنت مدامع علقت بأهداب الحياة
يا شعر ! أنت دم تفجر من كلوم الكائنات
يا شعر ! قلبي — مثلما تدري — شقي مظلم
فيه الجراح النجل يقطر من مغاورها الدم
جمدت على شفتيه أوزار الحياة العابسه
فهو التعيس ، به مرارات القلوب البائسه
أبداً ينوح بحرقة بين الأماني الهاويه
كالبلبل الفريد ما بين الزهور الذاويه
كم قد نصحت له بأن يسلو وكم عزيته
فأبى وما أصغى إلى قولي ، فما أجديته
كم قلت : صبراً يا فؤاد ! أما تكف عن النحيب !
فإذا تجلدت الحياة تبددت شمل اللهيب
يا قلب . لا تجزع أمام تصلب الدهر الهصور
فإذا صرخت توجعاً . هزئت بصرختك الدهور
يا قلب ! لا تسخط على الأيام ، فالزهر البديع
يصغى لضجات العواصف قبل أنغام الربيع
يا قلب لا تقنع بشوك اليأس من بين الزهور
فوراء أوجاع الحياة عذوبة الأمل الجسور
يا قلب لا تسكب دموعك بالفضاء فتندم
فعلى ابتسامات الفضاء قساوة المتهكم

هل ظلَّ منبعك الغزير من الشمال كما رأينا ؟
وهل المصبُّ كما افترقـ ... ـنا في رُباه أو التقينا ؟
والصخرة الحمراء هل ... بقيتْ كما كانت علينا ؟!
أين السبيلُ إليك يا ... نهر الأحبة أين أينا ؟!

محمد عبد الغني حسن

لكن قلبي وهو مخضل الجوانب بالدموع
جاشت به الأحزان إذ طفحت بها تلك الصدوع
يبكي على الحـــلم البعيد بلوعـــة لا تنجلي
غردا كصداح الهواتف في الفـــلاة يقول لي :
طهر كلومك بالدمـــوع وخلها وسبيلها .
إن الـــدامع لا تضيع حقيرها وجليلها
فمن الـــدامع ما تدمع جارفاً حسك الحياة
يرمى لهـاوية الوجود بكل أشـــواك الطفاة
فارحم مضاضته ودع معـــه على أحـــلامه
فلقد قضى الحـــلم البـديع على لظى آلامه
ردد على سمـــع الدجى أنات قلبي الواهيـــه
واسكب بأجفان الزهور دموع قلبي الداميه
فلعل قلب الليـل أشفق بالقـــلوب الباكيه !
ولعل جفن الزهر أحفظ للدمـــوع الجاريه !
كم حركت كف الأسى أوتار ذياك الحنين
فتهاطلت أحزان قلبي في أغاريد الأنين
ولكم أرقت مدامعي حتى تقرحت الجفون
ثم التفت فلم أجـــد قلباً يقاسمني الشجون
فعسى يكون الليـــل أرحم . فهو مثلي ينـدب
وعسى يصون الزهر دمعي فهو مثلي يسكب
قد قنعت كف السماء المـــوت بالصمت الرهيب
فغدا كأعماق الكهوف بلا ضجيج أو وجيب
يأتي بأجنحة الكون كأنه الليـــل البهيم
لكن طيف المـــوت قاس والدجى طيف رحيم
ما للمنية لا ترق على الحيـــاة الناعمه ! ؟
سيان أفئدة تئن أو القـــلوب الصادحه ؟
يا شعر ! هل خلق المنون بلا شعور كالجماد ؟
لا رعشـة تعرو يديه إذا تملقه الفـــؤاد ؟
أرأيت أزهار الربيع وقـــد ذوت أوراقها
فهوت إلى صـــدر التراب وقد قضت أشواقها ؟
أرأيت شحرور الفـلا مترنما بين الغصون
جد النشيد بصدره لمـــا رأى طيف المنون ؟
فقضى وقـد غاضت أغاريد الحيـــاة الطاهره
وهوى من الأغصان ما بين الزهور الباسره
أرأيت أم الطفل تبكي ذلك الطفل الوحيـد
لمـــا تناوله بعنف ساعد الموت الشديد ؟
أسمعت نوح الباشق الولهان ما بين القبور
يبكي حبيبته فيـا لصارع المـوت الجسور ؟
طفحت بأعماق الوجـود سكينة الصبر الجليد
لما رأى عـدل الحياة يضمه اللحـد الكنود
فتدفقت لحناً يردده على سمع الدهـور
صوت الحيـاة بضجة تسمى على شفة البحور
يا شعر ! أنت نشـيد أمـواج الخضم الساحره
الناصعات ، الباسمات ، الراقصات ، الطاهره .
السافرات ، الصادحات ، مع الحياة ، إلى الأبد !
كمرائس الأمل الضحوك يمس ما طال الأمد
ها إن أزهار الربيع تبسمت أكمامها
ترنو إلى الشفق البعيد تغرها أحلامها
في صدرها أمل يحدق نحو هاتيك النجوم
لكنه أمـل ستلحده جبارة الوجوم
فلسوف تغمض جفنها عن كل أضواء الحياة
حيث الظلام مخيم في جو ذياك السبات
ها إنها همست بآذان الحياة غريدها
فتلت عصافير الصباح صداحها وتشيدها
يا شعر ! أنت نشيد هاتيك الزهور الباسمه
يا ليتني مثل الزهور بلا حياة واجمه
إن الحياة كئيبة مغمورة بدموعها
والشمس أضجرها الأسى في صحوها وهجوعها
فتجرعت كأساً دهاقا من مشمشة الشفق
فتمايلت سكرى . إلى كهف الحياة ولم تفق
يا شعر ! أنت نحيبها لما هوت لسباتها
يا شعر ! أنت صداحها ، في موتها ، وحياتها
يا شعر ! يا قيثارة الأحلام يا ابن صبابتي
لولاك مت بلوعتي وبشقوتي وكآبتي
فيك انطوت نفسي وفيـــك سكبت كل مشاعري
فاصدح على قمم الحياة بلوعتي .يا طائري

أبي القاسم الشابي